مقطوعة، صوت القذائف والرصاص من كل حدب وصوب ، طائرات الأباتشي لا تغادر سماء المخيم لدقيقة واحدة ، وهناك طائرة استطلاع للتجسس ، حددت مساحة مناورتها فوق سماء المخيم أيضا ، وذلك لكشف المقاتلين ومواقعهم ، إمكانات هائلة لا تستخدم إلا في الحرب بين الدول ، عشرات الدبابات تحاصر المخيم والمدينة وتقطع الطرق الرئيسية ، في أثناء سيرنا ونحن متوجهون إلى حارة الدمج ، كان الليل دامسا بسبب انقطاع التيار الكهربائي، فقد استحدث المجاهدون كمائن في البيوت بناءً على خبرتهم المتراكمة في جميع الحارات والأحياء ، وتعاملوا بالشيفرة (أي كلمة للتعارف تسمى (سرّ الليل) التي تغير كل فترة ، وأثناء مسيرنا اعتُرضنا أكثر من مرة، وطُلب منا أن نقول كلمة السر ، فعرّفت بنفسي بأن الذي يتكلم معكم (الشيخ بسام السعدي) ، وكانوا يسهلوا لنا المسير عندما يعرفوننا ، عندما وصلنا إلى مداخل حارة الدمج بعد مشقة وعناء ، بسبب تواجد الطائرات المكثف ، ونيران القناصة المتركزين في البيوت في أعلى المخيم، وكذلك كمائن الشباب الذين لم يكونوا يعرفوننا بالظلام ، وجدنا على كل مدخل للحارة مجاهداً ، أو أكثر ، فسألتهم عن الشيخ محمود طوالبة، فاصطحبنا أحدهم من خلال زقاق لا يتعدى عرضه متر أو أقل ، إلى داخل حارة الدمج المغطى قسم من أزقتها بالسقوف، وتشبه البلدة القديمة في نابلس، ولكن بشكل مصغر جدا ، فدخلنا على بيت، وإذا بالشيخ المجاهد طوالبة ومجموعة من إخوانه في (سرايا القدس) ، وعددهم لا يقل عن اثني عشر مجاهداً ، عدد منهم نيام ليستريحوا ، وكان من ضمنهم الشهيد القائد طه الزبيدي ... ضيّفنا الشيخ محمود فنجاناً من القهوة، وكان منهمكا – كعادته– بالإعداد لمواجهات اليوم التالي ، سمعته يقول: نريد أن ننسف دبابة الميركافاة صباح غد ، فقال له أحد المجاهدين: بل ننسف الجرافة ، فرد عليه طوالبة: بل الميركافاة، لأن الميركافاة فيها عدد أكثرمن الجنود ، وكذلك لكي تلغي الدول التي ترتبط بعقود تجارية مع إسرائيل هذه العقود ، مما يعود بخسائر جسيمة على الكيان الصهيوني ، كان عنده بعد نظر استراتيجي أيضا .

قال له أحد المجاهدين :ما هو برنامجنا لهذه الليلة ، فقال : نبقى يقظين ، ولكن اطمئنوا فإن الجنود الصهاينة لا يهاجمون بالليل لشدة جبنهم ، ومن تجربتنا السابقة معهم في المعارك السابقة،فان المعركة تبدأ عند بزوغ الفجر ، مكثنا في زيارة القائد الشهيد أكثر من ساعة تقريبا ، ولم نرد الإطالة عليه مع حبنا